

صوت من العالم الآخر

[مهداة إلى روح أبي العلاء مؤلف رسالة الفرائد]

للأستاذ نجيب محفوظ

— ١ —

—>>><<<—

مقدمة

[سودت هذه الصفائف يد ميت . كتبها بعد أن فارقت الحياة واصلت إلى منجته الأخير . ويبدو هذا — أول وهلة — غريباً لا يصدق ! ولكنه يبدو لا غرابة فيه إذا تذكرنا حكمة قدماء المصريين التي أملت عليهم أن يودعوا قبر الميت آثاره وما كان يحبه أو ينتفع به في دنياه ، كي تنتفع روحه — إذا زارت القبر وتعاودت الجسد ليلة بعد أخرى — بما كانت تنتفع به في دنياه من مسرات الحياة . فإن كان الميت كاتباً أو دعوا قبره — بطبيعة الحال — كتبه وأوراقه ، وربما تلت روحه بالكتابة كما كانت تفعل في الدنيا . وهذا ما يبدو أنه كان الواقع في الحال التي نحن بصدددها . فقد اكتشفت في العهد الأخير مقبرة لكتاب اسمه توتى من كتاب الأسرة التاسعة عشرة ، عثر بها على مخطوط من البردى تدل القرائن على أن صاحب المقبرة — أو روحه على الأصح — كتب على أثر الدفن مباشرة . وهو يحسب حقائق غريبة لا يدرى الحى عن أكثرها شيئاً . ولا يمكن أن توضع موضع الاختيار والتجربة . وقد أثارنا من الدهشة ما هنأ الأئمة جميعاً . ويقتصر على على ترجمة هذا المخطوط العجيب دون تعرض للضمائم التي أثبتت حوله ، ولا للجدل الذى اكتنف هذه الضمائم . ولتقارىء أن يري فيما جاء به رأيه ، يبدأنه ينهى أن تذكر دائماً أنها خطرات ميت . وإليك ترجمة هذا المخطوط] .

ترجمة المخطوط الهرم غلبنى

يا إلهى ! ماذا يعوز هذا القبر من طيبات الحياة القانية ؟ ! إنه قطعة من صميم الحياة حافلة بما لذ وطاب . لقد حليت جدرانها بصور الجوارى والخدم ، وفرش بأثغر الأثاث ، وأجمل الرياش . وبه ما أشاء من أدوات الزينة والعطور والحلى ؛ وفيه مخزن مغمم بالحبوب والبقول والفاكهة . وها هي ذى مكتبتي حملت إليه

مجلداتها الحكيمة ، وما يحتاجه الكاتب من الأوراق والأقلام . هي الدنيا كما عهدتها . ولكن هل ثمة طعم للدنيا في حواسي الآن ؟ ! أبى حاجة إلى متعة من متعتها ؟ ! جهد ضائع ذلك الذى بذله الذين هياؤوا هذه المقبرة . بيد أنى لا أستطيع أن أنكر أمراً غريباً هو أنه ما فتئت نفسى تنازعنى إلى القلم . يا عجبا ! ما لهذه الأوراق تنادى بسحرها المحبوب ؟ ! ألا يزال بي موضع لم يمح منه الموت منازع الضعف والهوى ؟ أفضى علينا — معشر الكتاب — أن تشقى بضاعتنا في الحياتين ؟ ! على أية حال لا يزال أمامي فترة انتظار أبداً بعدها رحلتى الأبدية . فلا أشغل هذا الفراغ بالقلم . فطالما دان القلم الفراغ بالجميل .

رباه ! ألا زلت أذكر ذلك اليوم الذى فصل بين الحياة والموت من عمرى ؟ ! بلى . في ذلك اليوم غادرت قصر الأمير قبيل الغروب ، بعد عمل شاق ، تمنانى فيه الجهد ، حتى قال لى الأمير « توتى ... كف عن العمل . ولا تشقى على نفسك » . وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق الغربى في سياحتها الأبدية إلى عالم الظلام ، ولآلىء من أشعتها المودعة تنتفض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود . فأخذت في طريق المعهود متمسكة شجرة الجيز في طرف القرية الجنوبي حيث يقوم بيتي الجميل .

يا آمون المعبود . ما هذا الألم في العظام والمفاصل ؟ ليس ما بي أثر من جهد العمل فطالما واصلت العمل بلا انقطاع . ولطالما تابرت وصبرت فغلبت الأعياء بالقوة والعزم . أما هذا الألم المضى ، أما هذه الرعشة المزولة ، فطارى جديد ، امتلأت منه رعباً . أليكون ذلك الخبيث الذى لا ينزل بجسم حتى يورده الهلكة ؟ انطوياً طريق القرية بمسكنك فما في جوارحى قوة تقبى من جمالك . واغرب ياطير السماء فما في صدر توتى المسكين خنان يتاديك ، وأخذت في الطريق قلقاً متأوها . وعند عتبة البيت طالعنى وجه زوجى رفيقة شباني وأم ابناي . فهتفت بي « توتى أيها المسكين . مالك تنتفض . ما لعينيك مظلمتين ... ؟ ! » فقلت لها محزوناً مكتئباً « يا أختاه .. وقع المخطور ... وحل الخبيث بجسم زوجك . هيئى الفراش وذربنى . ونادى الحكيم والأبناء والأحباب : قولى لهم إن توتى على فراشه يضرع إلى ربه . فاضرعوا معه . واسألوا له الشفاء ! » وحللتى التى تهوانى على صدرها . وجاء الحكيم فجرعنى الدواء

وأشار بأصبعه إلى السماء وقال لى : « توى ... أيها الكاتب الكبير ! يا خادم الأمير الجليل ! أنت فى حاجة لرحمة الرب . فادعه من أعماق قلبك » . ورقدت لا حول لى ولا قوة . يا آمون المعبود جلت حكمتك ! ألم أحب سيدي الأمير إلى الشمال فى جيوش فرعون ؟ ألم أشهد القتال فى صحارى زاهى ؟ ألم أحضر قادش مع الغزاة البواسل ؟ لى أيها الرب . ونجوت من الرماة والمجالات والبارك . فكيف يهددنى الموت فى قريتي المحبوبة الآمنة بين أحضان زوجى وأبناى ؟ ! وغرقت فى أبخرة الحمى . واشتد اللوار برأسى ، وسال بلسانى الهذيان ، وشمرت بيد الموت ترماد قلبي . ما أقباك أيها الموت ! أراك تتقدم إلى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخرى ، لا تنعب ولا تسام ولا ترحم ، لا تهزك الذموم ، ولا تستعطفك الآمال . تدوس حبات القلوب ، وتتخطى الأمانى والأحلام . ثم لا تبدل سنتك ولو كان القريسة فى ربيع العمر الزاهر . توى فى السادسة والعشرين ذو بنين وبنات ، ألا تسمع ؟ ماذا يضريك لو تركت أنفاسى تردد فى صدري ؟ دعنى ربها أشبع من هذه الحياة الجميلة المحبوبة . لأنها لم تسؤنى قط ولم أزهدها أبداً . أحببتها من أعماق الفؤاد ولا أزال على العهد . كانت الصحة طيبة والمال موفوراً والآمال كباراً . ألم تحط بكل أولئك خيراً ؟ ومن حولى قلوب محبة ونفوس والهة ، أفلا تنظر إلى الأعين الدامعة ؟ كآنى لم أعش ساعة واحدة فى هذه الحياة الجميلة المحبوبة . ماذا رأيت من مشاهدتها ؟ ما ذا سمعت من أصواتها ؟ ما ذا أدركت من معارفها ؟ ما ذا ذقت من فنونها ؟ ما ذا جربت من ألوانها ؟ أى فرص ستضيع غداً ؟ أى نشوات ستخمد ! أى عواطف ستهدم ! أى مسرات ستبطل ! ذكرت ذلك جميعه . ودارت بخلدى أشياء أخرى لا حصر لها ولا حد ، ما بين مفاتن الماضى وسحر الحاضر وأمانى المستقبل . وجرت أمام حوانى الورود والحقول والمياه والسحاب والمآكل والمشرب والألحان والأفكار والحب والأبناء وقصر الأمير وحفلات فرعون والرتب والنياشين والألقاب والفخر والجاه وتساءلت : أبعضى كل هذا إلى الفناء ؟ وأقبض صدري أيعا انقباض . وامتلاأت حزناً وكدأً . وهتفت كل جارحة لى « لا أريد أن أموت » . وتناهت جحافل الليل . فقلب النوم الصغار . ولبثت

زوجى عند رأسى وأبى عند قدمي ، وانتصف الليل ونحن على حالنا . ثم استدار وأوغل فى الرحيل ، ثم بهت ذوابه بزرقة الفجر . هنالك داخلنى شعور غريب بالرهبة وتولانى إحساس بالخوف . وأطبق السكون وأنذر بشىء خطير . ثم شعرت بيد أبى تدلك قدمي وتقول بصوت متهدج « بنى ... بنى ! » وهتفت زوجى المحبوبة « توى ... ماذا تمجد ؟ » ولكنى لم أستطع جواباً . لاشك أن أمراً استثار جزعها . ترى ماذا يكون ؟ هل لاح فى وجهى النذير ؟ وتحولت عيناى على غير إرادة منى نحو مدخل الحجر . كان الباب مغلقاً بيد أن الرسول دخل ، دخل دون حاجة إلى فتح الباب . فعرفته دون سابقين معرفة فهو رسول الفناء دون سواه . واقرب منى فى خطى غير مسموعة : كان مهيباً صامتاً مبتسماً ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحول عنه عيناى . ولم أعد أرى من شىء سواه . وأردت أن أضرع اليه ولكن لم يطاوعنى اللسان . وكأنى به قد أدرك نيتى الخفية . فازدادت ابتسامته اتساعاً . فأنت منه رقيقاً . ولم أعد أبالى شيئاً . انجابت عنى وساوس الليل وأحزانه وحسرانه . وغفلت عن دموع من حولى . ووجدت نفسى فى حال من الاستهانة والطمأنينة لم أعهد لها من قبل . سلمت فى عجة لانهاية وترك جسمى فى المركب وحيداً ! رأيت - دون مبالاة ألبتة - دى يقاوم فى عروقى ، وقلبي يدق ما وسعه الجهد ، وعضلاتى تنقبض وتنبسط ، وأنفاسى تردد من الأعماق ، وصدري يملو وينخفض . وشمرت بالأيدي الحنون تسند ظهري وتمحيط بى . رأيت ظاهرى وباطنى رؤية العين بنير مبالاة ولا اكترات . وقد تحول الرسول عنى إلى جسمى وأخذ فى مباشرة مهمته فى ثقة وطبائنة والابتسام لا تفارق شفثيه الجيلتين . وشاهدت نسمة الحياة المقدسة تدعنى لشيثته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر ، والدم من ورائها يجمد والأعضاء تهمد والقلب يسكت ، حتى غادرت الفم الفغور فى زفرة عميقة . سكن جسمى وصحت إلى الأبد . وذهب الرسول كما جاء دون أن يشمر به أحد . وغمرنى شعور عجيب بأنى فارقت الحياة . وأبى لم أعد من أهل الدنيا ...

عجيب محفوظ

للكلام بنية